



13 يناير 2020

من تراث الراحل أ. جمعة أمين عبدالعزيز

كثير التباكي على حال المسلمين في هذه الأيام، فما من مسلمٍ تلقاه أو تجلس إليه أو تتحدث معه، إلا ويذرف الدمع على الوضع الذي آلوا إليه، والحال الذي لا يسرُّ لا من جهة الدنيا ولا من جهة الدين، فكل من نطق بالشهادتين تراه يشكو إليك ضعف قوتنا، وقلة حيلتنا، وهواننا على الناس، وبسير إليك بالعقائد الباطلة التي اصطنع بها كثير منهم، وحتى العبادات التي إن أدوها فحركات ورموز وأشكال لا روح فيها، فضلاً عن الشرائع التي بُدلت وغيّرت بل ورُيفت، والأهواء التي تحكمت والأخلاق التي شوهت وفسدت والتي كان من نتيجة ذلك كله الشخصية الغثائية الإيمعية التي تفتشت في كثير منهم.

والغريب أن الذين يعلمون هذه الحقائق يتساءلون: أين عزة المسلمين؟ والله يقول: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (المنافقون، من الآية 8) وأين نصر الله الذي يقول: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الروم: من الآية 47)، وأين تمكين الله للمستضعفين، وهو سبحانه القائل ﴿وَتُرِيدُ أَنْ تَمَنَّٰ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَتَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَتَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ (القصص:5)، أليس هو سبحانه الذي كتب هذا كله وكلامه لا يُمحى؟ ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَعْلَيْنَ أَنَّآ وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (المجادلة:21)، فأين وعد الله الحق؟

ينسى هؤلاء المتسائلون أو تناسوا أن وعد الله الحق مشروط بشرطين:

الإيمان الصادق – صحة في اعتقاد

والعمل الصالح – صدق في اتباع

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (النحل:97).

حياة طيبة في دنياه قبل الآخرة التي فيها جنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين، لا فيها خوف ولا فزع، ولا هلع ولا وجل، بل فيها العزة التي تجعل قامته مرفوعة، وكلماته مسموعة، وحركاته مرهوبة "فمن أعطى الدنية في دينه طائغاً غير مُكره فليس مني" قال ذلك الحبيب محمد صلى الله عليه وسلم، وأكد القرآن للمؤمنين عزتهم وهم في أحلك الساعات وأخطر الأوقات، وهم قلة في العدد والعدة ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (آل عمران: 139)، فالعزة وهي مئة من الله لا تُعطى ولا تُمنح، ولا يشعر بها إلا كل مؤمن صادق يعرف أن له رسالة في هذا الوجود يعمل على تحقيقها في عزة واستعلاء.

لقد جعل الله سبحانه وتعالى لأوليائه العزة والعلو، ووعدهم النصر والتمكين كما جعل لهم العاقبة في الآخرة، أما العزة والعلو؛ فإن من طبيعة الحق إذا تمكن من القلوب أن تستمسك به، بحيث يهون عليها أن تتحمل كل محنة وبلاء في سبيله؛ لأنه يصغر في عين من صدق إيمانه كل عذاب في سبيل الحياة بالحق للحق، وثبات صاحب الحق على الحق حتى الموت انتصار وأي انتصار، ذلك أن أصحاب الباطل يودون بفتنتهم المؤمنين أن يردوهم عن دينهم إن استطاعوا، ويغيطهم أن يثبت أهل الحق على ما هم عليه، وأن يصبح الموت عندهم هيباً في سبيله، ولم يكن البلاء الذي يُنزله الكفار بالمؤمنين مقصوداً لذاته، وإنما كان الغرض منه ارتداد المسلمين عن دينهم ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَئِن لَّمْ يُدْعُوا لِلْإِسْلَامِ هُنَا وَلَا هُنَا لَيَكْفُرُنَّ بِهِنَّ بِمَنَاسِكِنَهُمْ﴾ (آل عمران: 139) فالهدف الرئيسي أن يأخذوا منهاجهم ويتبعون ملتهم، فإذا لم ينل الكفار ما يريدون كانت هزيمة لهم وخيبة، ونصر للمؤمنين أصحاب الدعوات الربانية.

وقد أخبر الله سبحانه وتعالى المؤمنين أنهم بإيمانهم في علو، وأنه إذا أصابهم في سبيل الحق بلاء فليحذروا أن يؤدي بهم إلى الضعف أو الحزن ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (آل عمران:139)، وذكر لهم أيضاً أنهم بإيمانهم في عزة وأن الذل والهوان لمن حادَّ الله ورسوله ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (المنافقون: 8)، كما أخبر سبحانه عن الكفار بأنهم لا يفترقون في محاولة إخراج المسلمين عن دينهم، وذلك في قوله سبحانه ﴿وَلَا تَزَالُ تَقَايَلُوتُمْ حَتَّىٰ تَبْزُوتَكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنْ اسْتَطَاعُوا﴾ (البقرة: من الآية 217)، وقوله سبحانه ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّوكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ (البقرة: من الآية 109) وحسب الإنسان المسلم انتصاراً أن يلقي ربه وهو راضٍ عنه بثباته على الحق واستعلائه به، وحسب المنهزم الذي يرجع على عقبه ويؤثر سلامة بدنه في ظل الكفر حسبه هزيمة وذلاً وخسارة أن يصير من الكافرين، وتحلَّ به الندامة والخزي حين يلقي ربه شقيّاً محروماً من جنته ورضوانه.

ينصرب لك مثلاً واحداً لرجل من رجالات الإسلام؛ لنين كيف كان الثبات أمام الطغاة المتكبرين انتصاراً للحق الذي حملوه.

نقل جميع المؤرخين في موقعة نهاوند أن العجم غاطهم تسلط العرب المسلمين على المدائن عاصمتها، فجمعوا عددهم وعدتهم وصمموا على غزو المسلمين، وكانوا يحتقرون العرب في بلادهم، فلما كمل عددهم وعدتهم أرسلوا إلى المسلمين أن يوفدوا إليهم من يكلمهم فأرسلوا المغيرة بن شعبة.

يقول الإمام الطبري: "فقالوا له إنما أنت كلب، فقلت معاذ الله، لأننا أشرف في قومي من هذا في قومه (مشيراً إلى الفيروزان الملك) فانتهروني، فقالوا: اجلس وأجلسوني، فقال الملك: "إنكم معشر العرب أبعد الناس من كل خير، وأطول الناس جوعاً، وأشقى الناس شقاء، وأقذر الناس قدراً، وأبعد الناس داراً، وما معني أن أمر هؤلاء الأساور حولي أن ينتظموكم بالنشاب إلا تنجسوا لجيفكم، فإنكم أرجاس، فإن تذهبوا نخلي عنكم، وإن تأبوا نريكم مصارعكم".

قال المغيرة بن شعبة: "فحمدت الله وأثبتت عليه، فقلت: والله ما أخطأت من صفتنا شيئاً ولا من نعنتنا أن كنا أبعد الناس داراً، وأشدهم جوعاً، وأشقى الناس شقاء، وأبعد الناس عن كل خير حتى بعث الله عز وجل إلينا رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم، فوعدنا النصر في الدنيا والجنة في الآخرة، فوالله ما زلنا نعرف من ربنا منذ جاءنا رسوله الفتح والنصر حتى أتيناكم، وأنا والله لا نرجع إلى ذلك الشقاء أبداً حتى تغلبكم على ما في أيديكم أو نقلت في أركمكم".

قال الملك: أما والله إن الأعور (يقصد المغيرة) أرسله العرب احتقاراً للعجم، وقد صدقكم الذي في نفسه. قال: فقامت وقد والله أرعبت العِلج (الفيروزان)"

وما أشبه الله بالبارحة، وما أوجنا إلى هذه الروح العالية، فهذه الروح الوثابة العزيرة والمعتزة بدينها كان الانتصار على أطغى الطغاة، وذلك لأن المولى سبحانه وتعالى يحرض المؤمنين لكي تتحقق عزتهم، أقول - يحرضهم على التجرد له، والعمل على نصرة نهجه في الحياة، وتعددهم على هذا النصر والتمكين والتثبيت فيناديهم وهو الرعوف بهم العزيز الحكيم، يناديهم وبدلهم على موطن العزة وأسباب تحقيقها ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَا لَهُمْ وَأَصْلٌ أَعْمَالُهُمْ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أُنزِلَ اللَّهُ فَاحْبَطُوا أَعْمَالَهُمْ﴾ (محمد:7-9)، وكيف ينصر المؤمنون الله حتى يقوموا بالشرط وينالوا ما شرط لهم من النصر والتثبيت؟

إن لله في نفوسهم أن تتجرد له، وألا تشرك به شيئاً، شرکاً ظاهراً أو خفياً، وألا تستنقي فيها معه أحداً ولا شيئاً، وأن يكون الله أحب إليها من ذاتها ومن كل ما تحب وتهوى، وأن تحكّمه في رغباتها ونزواتها وحركاتها وسكناتها وسرّها وعلانياتها، ونشاطها كله وخلقاتها، فمن أعطى لله ومنع لله وأحب لله وأبغض لله فقد استكمل الإيمان ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ (التوبة:24).

هذا هو النصر بعينه وهذه هي عزة المسلم حين يستعلى على الماديات ويعتز بعزة الله، ورضوان الله على عمر بن الخطاب حين قال: "كنا أدلة فأعزنا الله بالإسلام، فمن ابتغى العزة في غير الإسلام أدله الله"، إنه نصر يبدأ من داخلك في ذوات النفوس، ثم يأتي نصر الله في شريعة الله ومنهاجه في الحياة، ونصر الله يتحقق بعد ذلك بنصرة شريعته وتحكيمها في الحياة كلها - بدون استثناء - فهذا نصر الله في واقع الحياة وحينئذ تتحقق العزة للمسلمين جميعاً.

إنه متى استقرت حقيقة الإيمان في نفوس المؤمنين، وتمثلت في واقع حياتهم منهجاً للحياة ونظاماً للحكم وتجرداً لله في كل خاطرة وحركة، وعبادة لله في الصغيرة والكبيرة، فلن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً، وهذه حقيقة لا يحفظ التاريخ الإسلامي كله واقعة واحدة تخالفها.

ونحن نقرر في ثقة بوعد الله الذي لا يخالجه شك أن الهزيمة لا تلحق بالمؤمنين، ولم تلحق بهم في تاريخهم كله إلا إذا كان هناك ثغرة في حقيقة الإيمان - إما في الشعور وإما في العمل - ومن الإيمان أخذ العدة وإعداد القوة في كل حين بنية الجهاد في سبيل الله، وتحت هذه الراية وحدها مجردة من كل إضافة ومن كل شائبة - وبقدر هذه الثغرة تكون الهزيمة الوقتية ثم يعود النصر للمؤمنين حين يوحدون.

وقف متأملاً ودارساً لتاريخك الإسلامي الذي بدأ بغزوات الرسول صلى الله عليه وسلم، تجد الأدلة الدامغة التي تبرهن على صدق ما نقول: ففي غزوة أحد مثلاً كانت الثغرة في ترك طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم وفي الطمع في الغنيمة، وفي حُبِن كانت الثغرة في الاعتزاز بالكثرة والإعجاب بها ونسيان السند الأصيل ﴿لَقَدْ تَصَرَّكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغِنِ عَنكُمْ شَيْئاً وَصَافَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمُ مُدْبِرِينَ﴾ (التوبة:25)، أما في غزوة بدر الكبرى فكان سيف النصر طاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنشط والمكره وفي العسر واليسر وفي كل المشاهد والمواقف.

ولو ذهبنا نتبع كل مرة تخلف فيها النصر عن المسلمين في تاريخهم لوجدنا شيئاً من هذا، نعرفه أو لا نعرفه، أما وعد الله فهو حق في كل حين ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يُعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (النور:55)

إن المحنة قد تكون للابتلاء، ولكن الابتلاء إنما يجيء لحكمة هي استكمال حقيقة الإيمان ومقتضياته من الأعمال، فمتى اكتملت تلك الحقيقة بالابتلاء والنجاح فيه جاء نصر الله وتحقق وعد الله عن يقين ﴿لَتَبْلُوَنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعَنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ (آل عمران:186)

فيجب أن نفهم أن الهزيمة هي هزيمة الروح وكلال العزيمة الذي يعيقها الذلة والانكسار؛ لأن الهزيمة في معركة لا تكون هزيمة إلا إذا تركت آثارها في النفوس هموداً وكلالاً وقتنوطاً، فأما إذا بعثت الهمة وأزكت الشعلة وبصرت بالمزالي وكشفت عن طبيعة العقيدة وطبيعة المعركة وطبيعة الطريق، فهي المقدمة الأكيدة للنصر المبين والله هو سبحانه القائل ﴿وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ (النساء: من الآية 141).

والمولى سبحانه بهذا يشير إلى أن الروح المؤمنة هي التي تنتصر، والفكرة المؤمنة هي التي تسود، وإنما يدعو سبحانه الجماعة المسلمة إلى استكمال حقيقة الإيمان في قلوبها تصورًا وشعورًا، وفي حياتها واقعًا وعملاً، وألا يكون اعتمادها على اسمها ورسمها وشكلها وعنوانها، فالنصر ليس للشعارات ولا العناوين ولا الكلام المعسول ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْجَبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ، وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَهُنَالِكَ الْخُرْتُ وَالَّذِينَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾ (البقرة:204-205) فالنصر - كما قلنا - ليس بالعناوين وإنما هو للحقيقة التي وراءها ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَابِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قِيَابِلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعُدًّا عَلَيْهِمْ خَطًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِنِعْمَتِ اللَّهِ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْعَقْدُ الْعَظِيمُ﴾ (التوبة:111)

وليس بيننا وبين النصر في أي زمان ومكان إلا أن نستكمل حقيقة الإيمان ونستكمل مقتضيات هذه الحقيقة في حياتنا وواقعنا كذلك، ومن حقيقة الإيمان بعد إعداد العدة والقوة ألا نركن إلى الأعداء وألا نطلب العزة إلا من الله، ووعد الله هذا الأكيد يتفق تمامًا مع حقيقة الإيمان، وحقيقة الكفر في هذا الكون: أن الإيمان صلة بالقوة الكبرى التي لا تضعف ولا تفنى، وأن الكفر انقطاع عن تلك القوة وانعزال عنها، ولن تملك قوة محدودة مقطوعة منعزلة فانية أن تغلب قوة موصولة بمصدر القوة في هذا الكون، غير أنه يجب أن نفرق دائمًا بين حقيقة الإيمان ومظهر الإيمان حتى نستبين السبيل القويم فنسلكه وتحقق عزتنا ويعود لنا مجد أمتنا، ولكن كيف؟

نقول في كلمات قليلة، ما قاله الإمام حسن البنا رضوان الله عليه: "إن الأمة التي تحيط بها ظروف كظروفنا وتنهض لمهمة كمهمتنا، وتواجه واجبات كتلك التي نواجهها لا ينفعها أن تتسلى بالمسكنات أو تتعلل بالأمال والأمان، وإنما عليها أن تعد نفسها لكفاح طويل عنيف، وصراع قوي شديد بين الحق والباطل، وبين النافع والضار، وبين صاحب الحق وغاصبه، وبسالك الطريق وناكبه، وبين المخلصين الغيورين والأدعياء المزيفين، وإن عليها أن تعلم أن الجهاد من الجهد، والجهاد من التعب، والعناء، وليس مع الجهاد راحة حتى يضع النضال أوزاره، وعند الصباح يحمد القوم السرى"، صدقت يا إمام، فطريق العزة محفوف بالمخاطر؛ لأنها سلعة غالية لا يصل إليها إلا رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه، فاسلك الطريق واقبض على الجمر.. وأنت تفعل الأمور وتترك المحظور وتصبر على المقدور.. تكن من الذين قال الله فيهم: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعْرَاجًا عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (المائدة: من الآية 54) ولا يؤتى هذا الفضل إلا من اعترز بدينه.

www.ikhwanonline.com/article/238174